تم اكتشافه على هذه الحال عشية خريفه، عندما كانت الجثة في الواقع لباتريشيو أراغونيس، ثم اكتشف من جديد فيما بعد على الحال نفسها بعد سنين عدّة في زمان كان مفعماً بالشكوك بحيث لم يكن أحد قادراً على التحقق من أن هذا الجسد الذي قرضته العقبان والذي كان مغطّى بطفيليات أعماق البحر هو جسده حقاً. وفي اليد التي تحولت إلى قطعة نقانق من دم أسود بفعل التفسّخ لم تبق أية علامة تسمح بالتأكيد على أن هذه اليد هي نفسها التي استقرت ذات يوم على قلب ممزّق بازدراء فتاة غير محتملة في أزمنة الضجيج، ولم نجد كذلك أدنى دليل حي نتوصل به إلى إثبات هويته من دون الوقوع في الخطأ. وبطبيعة الحال، لم نفاجأ بذلك نظراً لكون عناصر الشك حول وجوده لم تكن منعدمة حتى في زمن قمة مجده، خاصة وأن قتلته المأجورين بالذات لم تكن لديهم أية معلومات دقيقة حول عمره في ذلك العصر من الفوضى حيث كان يبدو عمره ثمانين عاماً في اليانصيب الخيري، وستّين عاماً في الاجتماعات المدنية وأقل من أربعين عاماً في المهرجانات العامة. ولقد روى السفير بالمرستون، أحد آخر الدبلوماسيين الذين قدموا له أوراق اعتمادهم، في مذكراته أنه كان من المستحيل تصوّر شيخوخة متقدّمة مثل شيخوخته ولا حالة فوضى وهجر أكبر من حالة ذلك المقر الرئاسي حيث توجب عليه أن يشق طريقه عبر مزبلة من الأوراق الممزقة، وبراز

الحيوانات وبقايا خبيصة الكلاب النائمة في الأروقة، ولم يكن أحد في دوائر الضرائب وفي المكاتب ليفيدني فلجأت مضطراً إلى البرصى والمشلولين الذين احتلّوا الغرف الخاصة الأولى والذين دلّوني على طريق قاعة الاجتماعات حيث كان الدجاج يلتقط الحبّ الوهمي في السجادات وحيث كانت بقرة تمزّق رسم مطران لكي تأكله، رأيته وفهمت للتو أنه شديد الصمم ليس فقط لأنني كنت أسأله عن شيء فيجيبني عن شيء آخر وإنما أيضاً لأنه كان يشتكي من أن الطيور لا تشدو في حين كان يستحيل التنفس تقريباً في ذلك التنافر الصوتي كما الغابة في بداية الصباح، ثم قاطع فجأة حفلة تقديم أوراق الاعتماد وبدا متألق النظر ويده على شكل بوق صغير خلف أذنه ليدلني على سهل الغبار حيث كان البحر يقيم سابقاً قائلاً لي بصوت من شأنه أن يوقظ الموتى، انصتْ إلى هذا الركض السريع للبغال، أنصت يا عزيزي ستيتسون، إنه البحر يعود. كان من الصعب الافتراض أن هذا الشيخ المتعذّر إصلاحه هو الرجل المسيحي الذي كان في بداية حكمه يظهر في القرى خلال أقل الأوقات توقّعاً وليس معه من المرافقين سوى رجل قروي حافي القدمين مسلّح بساطور لقطع القصب ومجموعة صغيرة من النوّاب والشيوخ كان يعيّنهم بإشارة من إصبعه حسب مزاجه الهضمي، فكان يستخبر حول غلّة الحصاد، وصحة الحيوانات وتصرّف القوم، ويجلس في كرسي هزّاز مجدول من النباتات المعترشة، تحت ظل أشجار المنغا في الساحة متروّحاً بقبّعته التي تشبه قبّعة رئيس عمّال، ورغم كونه كان يبدو نعساً تحت الحرّ فإنه لم يكن يغفل أية تفاصيل في الجدال الذي يخوضه مع الرجال والنساء الذين دعاهم حوله منادياً عليهم بأسمائهم العائلية والشخصية

كما لو كان يحتفظ في ذاكرته بكل الحالة المدنية وبسِجِلٍ للأرقام والمشاكل في الأمّة جمعاء، وعلى هذا المنوال ناداني من دون أن يفتح عينيه، تعالي إلى هنا يا خاثنتا موراليس، قال لي، احكي لي قليلاً ماذا جدّ بالنسبة لذلك الصبيّ الذي أمسك هو ذاته بخناقه في السنة الماضية كي يرغمه على ابتلاع قارورة من زيت الخروع، وأنت يا خوان بريتو، قال لي، كيف حال ثورك المعشّر الذي داواه هو بنفسه بواسطة وصفات سحريّة لإسقاط الدود من أذنيه، وأنتِ، يا ماتيلدا بيرالتا، هيّا، ماذا تراك تُعطينني لو أعدت إليك زوجك المتهتك، بلى أعيده لك، مسحوباً من طوقه بحبل ومحذّراً من قبلي بأنه إذا عاد وهجر امرأته الشرعية من جديد فسوف أحكم عليه بأن يتعفن باقي أيام حياته تحت نير[1] صيني، ودائماً بهذا الحس السياسي نفسه تجاه اللحظة الحاضرة أمر أحد جزّاري المسالخ بأن يقطع يدي أمين خزانة سفيه متلف، وكان يقتلع الطماطم من البساتين الخاصة ويأكلها على أساس أنه خبير أمام مهندسيه الزراعيين قائلاً ينقص هذه التربة الكثير من روث حمار غير مخصيّ، فليوزّع ذلك على حساب الحكومة، كان يأمر، وكان يقاطع الموكب المدني كي يصرخ بي ميتاً من الضحك عبر النافذة، هاي لورنزا لوبيز ماذا عن آلة الخياطة التي أهداني إياها قبل عشرين عاماً، وكنت أنا أجيب لقد لفظت أنفاسها، سيدي الجنرال، تصوّر نحن والأشياء لسنا مجبولين لكي ندوم أبدياً، لكنه كان يردف بلى بلى العالم أبدي، ثم شرع يفكّ الماكنة بواسطة مفك براغٍ وقطّارة زيت غير مكترث للموكب الرسمي الذي ينتظره في وسط الشارع، كنّا أحياناً نلاحظ اليأس في لهاثه الشبيه بلهاث الثور وكان يتلطّخ بالزيت حتى عينيه، ولكنْ بعد أقل من

ثلاث ساعات بقليل تعود ماكنة الخياطة إلى دورانها مثل ماكنة جديدة تماماً، ولقد تمادى في الاهتمام إلى حدّ أنه في ذلك العصر لم يعد يوجد أي عائق في الحياة اليومية، ولو كان غير ذي شأن، لا يكتسي بالنسبة إليه الأهمية نفسها التي لأخطر شؤون الدولة، كان يعتقد بطيبة قلب أنه من الممكن توزيع السعادة ورشوة الموت بالمناورة التي يمتاز بها الجندي. كان من الصعب التسليم بأن ذلك الشيخ الذي لا يمكن إصلاحه هو بقية إنسان كانت سلطته من القوة بحيث سأل ذات يوم كم الساعة الآن، الساعة التي تريدها سيدي الجنرال أجابوه، وكان ذلك صحيحاً، إذ أنه لم يكن يحوّر لحظات النهار فقط من أجل حسن سير أعماله بل كان أيضاً يعدّل تواريخ الأعياد المتوجبة عيناً كي يتمكن من التطواف من عيد شعبي إلى آخر في سائر أنحاء البلاد يرافقه ظل الهندي الحافي القدمين وبعض الأعيان الكئيبين وعدد من سلال القصب الملأى بديوك زاهية كان يصارعها مع أشرس ديوك المنطقة، فيحدد قيمة الرهانات بنفسه، ويجعل المتفرّجين في حلبة صراع الديكة يرتجفون ضحكاً إذ كنّا نشعر أننا مجبرون جميعاً على الضحك عندما يقهقه مثل صندوق ضخم غريب يغطّي اللازمات الغنائية والمفرقعات، كنّا نتألم عندما يسكت، وننفجر بهتافات الانفراج عندما تصرع ديوكه ديوكنا المروّضة جيداً كي تخسر بحيث لم يخطئ أحد منها أبداً، ما عدا ذلك الديك القذر لـ ديونيزيو اغواران الذي أنهى انزعاج السلطة بهجوم فوري وناجح إلى حد أنه كان أولّ من تقدّم عبر الحلبة لمصافحة يد المنتصر، أنت فحل، قال له مبتهجاً، وشاكراً إذ أن أحدهم تمكن أخيراً من أن ينعم عليه بهزيمة لا أهمية لها، أنا مستعد لدفع الكثير كي أحصل على هذا البطل الأرجواني، قال له،

وأجابه ديونيزيو اغواران مرتجفاً إنه لك سيديْ الجنرال وهذا أمر يشرّفني كلّ الشرف، ثم قفل راجعاً بين تصفيق الشعب والجذل وضجيج الموسيقى والمفرقعات مظهراً للجميع الديوك الستّة الأصيلة التي وهبها له مقابل ديكه الأحمر الذي لم يقهر، ورغم ذلك فقد انزوى في المساء نفسه في حجرته وابتلع محتوى مطرة كاملة من عرق قصب السكر بمفرده ثم شنق نفسه بحبل من أرجوحة نومه، المسكين، كلا لم يكن يعي سلسلة المصائب المنزلية التي كان يحدثها ظهوره وهو جذل، ولا اصطفاف الموتى بطريقة اضطرارية والذين كان يتركهم إثر مروره، ولا الحكم الأبدي بزوال الحظوة على أتباعه الذين كان يعطيهم اسماً خاطئاً أمام قتلة مأجورين مستعجلين كانوا يفسّرون الخطأ على أنه إشارة لامبالاة مقصودة، كان يجوب البلاد بأسرها بمشية الأرمديل الغريبة، وسيل العرق الوحشي، واللحية البدائية، يظهر من دون سابق إعلان في المطابخ على هيئة جدّ عديم الجدوى فيملأ سكان البيت رعباً، ويغترف الماء من الجرّة بمغرفة الحساء، ويأكل من القدر ملتقطاً القطع بأصابعه، بكل مرح ومن دون أدنى تكلّف، فلا يخطر بباله أن البيت سيحمل إلى الأبد آثار زيارته، ولم تكن هيئته مستوحاة من حسابات سياسية ولا من حاجة إلى الحبّ كما كان الأمر في أزمنة أخرى كلا كان ذلك سلوكه الطبيعي عندما لم تكن السلطة بعد، ذلك المستنقع الموحل بلا ضفاف في عزّ خريفه، وإنما فيض من الحمّى كنا نراه ينبثق من ينابيعه الأولى، كان يكفي أن يشير ببنانه إلى الأشجار التي ينبغي أن تثمر والحيوانات التي ينبغي أن تكبر والرجال الذين ينبغي أن ينجحوا، لقد أمر بإلغاء المطر من الأماكن التي يعيق فيها المحصول وجعله ينزل في الأراضي الجافة، وهو ما حدث،

سيدي، لقد رأيته، بعينيّ رأيته، إذ أن أسطورته كانت قد بدأت قبل أن يعتقد هو ذاته بأنه سيد قوّته الوحيد، عندما كان لا يزال تحت رحمة نذر كوابيسه وتأويلاتها فيلغي فجأة سفراً في بدايته بعد سماعه لغناء الـ «بيغا» فوق رأسه، ويغيّر تاريخ خروجه إلى الناس لأن أمّه بندثيون ألفارادو وجدت محّيْن في بيضة واحدة، ويلغي موكب الشيوخ والأعيان الذين يرافقونه في كل مكان ويلقون عوضاً عنه الخطب التي لم يتجرّأ قط على إلقائها لأنه رأى نفسه في بيت كبير مقفر في الحلم محاطاً برجال شاحبين يرتدون سترات «لاوية» رمادية ويمزّقونه بسكاكين جزّار وهم يبتسمون، ويطاردونه مسعورين بحيث كان يرى أينما التفت شفرة جاهزة لتنقضّ على رأسه وعلى عينيه، رأى نفسه محاصراً مثل حيوان متوحّش بقتلة صامتين مبتسمين يتنافسون على المشاركة في القربان واللّعب في دمه، ورغم ذلك لم يكن يشعر بالحنق ولا بالخوف وإنما بانفراج عظيم يزداد عمقاً كلّما تقدّم في العمر، كان يحس نفسه خفيفاً ونقيّاً، إلى حد أنه كان يبتسم هو أيضاً في حين كانوا يقتلونه، كان يبتسم من أجلهم ومن أجله شخصياً في بهجة بيت الكوابيس الذي كانت جدرانه الكلسيّة تتلطّخ ببقع دمي، حتى اللحظة التي أصاب فيها واحد من أبنائه في الحلم ثنية فخذه التي كانت تخرج منها آخر أنفاسه، وعندئذ أخفى رأسه تحت غطائه المبلل بالدم حتى لا يتمكن أولئك الذين عجزوا عن معرفته حيّاً من التعرف إليه ميتاً وانهار منتفضاً من حشرجة احتضار حقيقي بحيث لم يقاوم رغبته الفوريّة في مكاشفة شريكي وزير الصحّة الذي انتهى بأن أذهله بهذا الكشف، سبق لمثل هذا الموت أن حدث مرّة واحدة في تاريخ الرجال سيدي الجنرال، وقرأ له المقطع في أحد

الكتب الكبيرة المصفرّة للجنرال لوتارو مونيوز، وكان الأمر كذلك تماماً، أمّاه، إلى حدّ أنه تذكر خلال القراءة أمراً نسيه عندما استيقظ، إذ عندما كانوا يقتلونه انفتحت كل نوافذ القصر فجأة من دون أن يتحرك أي أثر للرّيح، كان عدد النوافذ في حلمه بعدد جراحه، ثلاثاً وعشرين، صدفة مهولة جاءت لتضاف في الأسبوع نفسه إلى إحدى غزوات القراصنة ضدّ مجلس الأعيان ومحكمة العدل أمام لامبالاة القوات المسلحة المتخاذلة، لقد استأصلوا البيت الجليل لعظماء ماضينا ومن الشرفة الرئاسية شوهدت ألسنة اللهب ترتفع متأخرة في الليل، أما هو فلم يتردد أمام النبأ سيدي الجنرال لم يتركوا حتى حجارة الأساس، ووعد باقتصاص نموذجي من المعتدين، الذين لم يظهر لهم أثر فيما بعد، ووعدنا ببناء نسخة أخرى مطابقة لمدفن عظماء الأمة الذي بقيت أنقاضه إلى أيامنا، ولم يفعل شيئاً لإخفاء تعويذة الحلم المشؤوم وإنما انتهز الفرصة لإلغاء الجهاز التشريعي والقضائي للجمهورية القديمة، وأغرق النوّاب والشيوخ والقضاة بالثروة والأمجاد إذ لم يعد في حاجة إليهم للتغطية مثلما كانت الحال في بداية عهده، فنفاهم إلى سفارات سعيدة نائية ولم يحتفظ في حاشيته إلا بالظلّ المتوحّد للهندي صاحب الساطور الذي لم يكن يفارقه وكان يذوق من أكله ومائه، ويشدّد الحراسة على الباب بينما كان هو يمكث عندي مغذياً إشاعة كونه عشيقي السري رغم أنه في الواقع كان يزورني مرتين في الشهر كي يستشير ورق «الباراخاس» طيلة تلك السنوات العديدة التي كان فيها لا يزال يظن نفسه فانياً، وكان ميّالاً إلى الشك والخطأ ويثق بالورق أكثر من ثقته بغريزته البدائية، فيصل دائماً مرتاعاً ومسنّاً كما في المرة الأولى عندما جلس أمامي، ومن دون

أن ينبس بكلمة واحدة مدّ لي يدَين بكفّين ناعمتين ومشدودتين مثل بطن ضفدع مسن لم أر قط مثلهما طيلة عمري الطويل في قراءة الأقدار الغريبة، وضعهما في وقت واحد على الطاولة مثل ورقتي استرحام صامتتين لمحكوم عليه، بدا لي حينئذ قلقاً ومتقززاً إلى حدّ أنني لم أتأثر بالكفين الجافتين قدر تأثري بكآبته الدائمة ووَهَن شفتيه، وقلْب العجوز الذي نخره الشك والذي كان يتعذّر علينا معرفة قدره ليس فقط في خطوط يديه وإنما في كل مصادر الكشف التي كانت بحوزتنا، إذ كان لا يكاد يمزّق الأوراق حتى تغدو آباراً عكرة، وكان ثفل القهوة يتشوّش في قعر الفنجان الذي شرب منه وكل ما له صلة بمستقبله وسعادته ونجاح مساعيه كان يتلاشى ليصبح أكثر نقاء كلّما تعلّق الأمر بقدر الناس الذين يعايشهم عن كثب أو عن بعد، وهكذا فقد رأينا أمّه بندثيون ألفارادو وهي تلوّن عصافير ذات أسماء غريبة وكانت متقدّمة في السن حتى أنها لا تكاد تميّز الألوان عبر هواء قليل الكثافة بفعل بخار نتن، يا للأم المسكينة، رأينا مدينتنا وقد اجتاحتها زوبعة عنيفة، رأينا رجلاً مقنّعاً باللون الأخضر وفي يده سيف فسأل عنه وقلبه منقبض في أي مكان من العالم تراه يوجد، فأجابه الورق بأنه في كلّ يوم ثلاثاء يكون بقربه أكثر منه في سائر أيام الأسبوع، آه آه قال، ثم سأل ما لون عينيه، فأجابه الورق بأن إحداهما بلون عصير قصب السكّر صفاء أما الأخرى فهي في الظلمات، آه آه قال، ثم سأل ما هي نوايا هذا الرجل، كانت تلك آخر مرّة كشفت له فيها عن حقيقة الورق حتى النهاية، إذ أنني أجبته بأن القناع الأخضر هو قناع الغدر والخيانة، آه آه قال، متشدّقاً بنبرة انتصار، أعرف من يكون، تبّاً، ولقد كان الكولونيل

نارشيزوميرافال، أحد مساعديه المقربين الذي أطلق من مسدسه رصاصة في أذنه، بعد يومين، دونما توضيحات، المسكين، كان مصير الوطن ينظّم إذاً على هذه الطريقة وكانت تنبؤات الورق تأتي قبل تاريخه عندما سمع بوجود عرّافة لا مثيل لها تقرأ علامات الموت من دون التباس في مياه الجفنات فذهب خفية ليبحث عنها عبر دروب البغال لا يرافقه سوى الملاك ذي الساطور، ووجدها في كوخ على الجبل الصحراوي حيث كانت تعيش مع بنت حفيدتها وهي أم لثلاثة أطفال ومتهيئة لوضع موروث رابع من زوجها المتوفي قبل شهر، وجدها عاجزة ونصف عمياء داخل مخدع معتم، ولكن عندما طلبت منه أن يضع يديه على مياه الجفنة شعت المياه بصفاء داخلي هادئ وشفاف، ورأى نفسه، إنه هو تماماً، ممدّداً على وجهه فوق الأرض، ببدلته الكتانية الخالية من الشارات، مع لفافتيه ومهمازه الذهبي، فسأل في أي مكان أنا ممدّد، فأجابته المرأة وهي تتفحص المياه الراكدة، في غرفة بحجم هذه، مع شيء يشبه مائدة عمل ومروحة كهربائية ونافذة تفتح على البحر وجدران بيضاء عليها لوحات خيول وعلم رسم عليه تنّين، آه آه أعاد القول، إذ لا شك أنه تمكن من معرفة المكتب المجاور لقاعة الاجتماعات، عندئذ سأل وهل ذلك من أثر ضربة أم بفعل مرض خبيث، فأجابته كلا، أنت نائم بلا ألم، آه آه قال، ثم سأل مرتجفاً وإلى متى، فأجابته نم مرتاح البال لن يحدث شيء قبل أن تبلغ عمري، مائة وسبع سنوات، ولكن أيضاً ليس بعد المائة وخمسة وعشرين عاماً التي ستلي، آه آه قال، ثم اغتال العجوز في كوخها حتى لا يتمكن أحد من معرفة الظروف التي سيموت فيها، خنقها بسير مهمازه الذهبي، بلا ألم، بلا تنهّد، مثل جلاد متمرّس، رغم أنها كانت الكائن الوحيد

على هذه الأرض الذي منحه شرف الموت على يديه في السلم أو في الحرب، يا للمسكينة، ولم يعد يتذكر سجلّ أعماله الشائنة ليقلق ضميره طيلة ليالي خريف، بالعكس، فقد خدمه ذلك كحكاية مثالية بصدد ما كان ينبغي أن يكون ولم يكن، خصوصاً عندما كسفت مانويلا سانشيز مع الكسوف وأراد العودة إلى عزّ زمن همجيته كي يستأصل ألم هذا العار الذي يمزّق أحشاءه، كان يتمدد في أرجوحة نومه تحت جلاجل الريح في أشجار التمر الهندي لكي يفكّر في مانويلا سانشيز بحقد يشوش عليه نومه بينما قوات البرّ والبحر والجو تبحث عنها من دون أن تجد لها أثراً حتى التخوم البكر في صحراء ملح البارود، أين اختفيتِ إذاً يا للفوضى، كان يتساءل، وكانت آلام القلب تهزّ قبعته الملقاة على صدره، والغضب يسمّره من دون أن يستمع إلى إلحاح أمه التي كانت تحاول معرفة الحقيقة لماذا لا تتكلم منذ مساء الكسوف، لماذا لا تنظر إلا إلى داخلك، أما هو فما كان يجيب، لقد رحلت، سحقاً يا أمّاه، كان يجرّ قدميْ اليتيم مستهلكاً مرارته، مجروحاً في كبريائه بالكآبة الدائمة، هذه السخافات تحدث لي لأنني أصبحت عاجزاً، لم أعدْ سيد قدري كما في السابق، لأنني دخلت عند امرأة قذرة بإذن أمها وليس كما دخل مسكن المزرعة الندية الهادئة لـ فرانشيسكا لينيرو عندما كان لا يزال هو ذاته يمثل السلطة أمام الناس وليس باتريشيو أراغونيس، دخل دون أن يحرّك حتى مطرقة الباب حسب رغبته في حين كانت ساعة الحائط تدق الحادية عشرة، سمعت صوت المهماز الذهبي من شرفة الباحة وأدركت أن خطوات الرجل الخشبية هذه الملحة المتصلّفة على البلاط لا يمكن أن تكون سوى خطواته، شعرت بكامل قامته قبل أن أراه يلوح من فتحة باب الشرفة

الداخلية حيث كان طائر الكروان يغنّي الساعة الحادية عشرة ما بين أزهار الجيرانيوم الذهبية، وحيث كان طائر التّوربيال أيضاً يغني وهو نشوان برائحة الأسيتون المنتشرة من أعذاق الموز المعلّقة في مساميرها تحت التسقيفة الأمامية، كان ضوء ذلك الثلاثاء المشؤوم من شهر أغسطس يواصل انتشاره بين أوراق شجر الموز الجديدة في الفناء وجسم الأيّل الفتي الذي اصطاده زوجي بونشيو دازا وقتله في أوّل الصباح ثم تركه ينزف معلقاً من قوائمه قرب أقراط الموز المخطط يعسله الداخلي، رأيته أكبر حجماً وأكثر قتامة مما لو كان في حلم، بجزمتيه الموحلتين، وسترته الكاكي المبلّلة بالعرق، ولم يكن يحمل سلاحاً في وسطه غير أنه كان في حماية ظل هندي حافي القدمين كان ماكثاً بلا حراك خلفه ويده ماسكة بمقبض ساطوره، رأيت العينين اللّجوجتين، ويد الفتاة النائمة التي اقتلعت موزة من أقرب قرط ثم أكلتها بلهفة، وأكلت أخرى ثم أخرى، ودائماً بلهفة وبصخب حنفيّة، من دون أن يغض بصره عن فرانشيسكا لينيرو المثيرة التي كانت تنظر إليه من دون أن تعرف ماذا تفعل ولم تتخلص بعد من خجل العروس الحديثة العهد إذ أنه جاء يرضي نزوته وهو الوحيد القادر على رفضها، وفي الأثناء أحسست بأنفاس زوجي المرتبكة وقد جلس بجانبي، فمكثنا جامديْن يداً في يد بقلبينا المرتاعين على اتفاق تحت النظرات الثابتة للشيخ الملغز الذي انتصب على مقربة خطوتين من الباب وهو يأكل الموزة تلو الموزة ويرمي بالقشور في الفناء من على كتفه، من دون أن تطرف له عين منذ أن بدأ يتفحصني، فقط عندما أتى على قرط الموز بأكمله وعندما ارتفع كدس كامل من قشور الموز قرب الأيل الميت، أشار إلى الهندي الحافي القدمين وأمر بونشيو دازا

أن يذهب لحظة مع شريكي الرجل صاحب الساطور الذي له أمر سيرتّبه معك، أما أنا فكنت أحتضر من الخوف غير أنني كنت أحتفظ بمقدار كاف من الصفاء لأدرك أن خشبة خلاصي الوحيدة هي تركه يفعل بي ما يشاء على الطاولة الكبيرة، وأكثر من ذلك، فقد ساعدته على خلع ثيابي الداخلية بعد أن كاد يخنق أنفاسي برائحة الأمونياك، ومزّق سروالي الداخلي بضربة من قدمه، وكانت أصابعه تبحث عني حيث لم أكن أوجد في حين كنت أفكّر مذهولة يا يسوع المسيح أيّة فضيحة، أي حظ عاثر، إذ أنني في ذلك الصباح لم أجد متسعاً من الوقت كي أغتسل بسبب الأيّل، وباختصار فقد أرضى نزوته بعد عدة أشهر من الحصار، إلا أنه فعل ذلك بطريقة سريعة وسيئة، كما لو كان أكبر سنّاً أو صغيراً جداً في السن، كان مضطرباً بحيث لم أكد أنتبه إلى أنه كان يأخذني بأقصى ما يقدر عليه، وفي النهاية شرع يبكي بدموع بول حارّ ليتيم كبير متوحّد، كان يبكي بحزن إلى حد أنني لم أشفق عليه فقط بل على كل الرجال في الأرض، وأخذت أحك له رأسه بأناملي وأعزّيه لا شيء يهم سيدي الجنرال، الحياة طويلة، وفي الأثناء كان الرجل صاحب الساطور يأخذ بونشيو دازا بين أشجار الموز ويمزّقه إرباً إرباً بحيث تعذّر تجميع أجزاء جسمه التي بعثرتها الخنازير، المسكين، لكن لم يكن هناك من حلّ آخر، أوضح قائلاً، إذ أنه كان سينقلب عدواً لدوداً مدى الحياة، عدواً قاتلاً. كانت تلك صوراً من سلطته تأتيه من البعيد فتثير كآبته، آه لكم أذابوا ملح سطوته حتى لم يعد قادراً على طرد أذى الكسوف، كانت شبكة من المرارة السوداء تجتاحه وهو عند طاولة الدومينو أمام رباطة الجأش المتجمدة لروديغو دي أغيلار العسكري الوحيد الذي عهد

إليه بحياته منذ أن بلّر تسمم الدم بالبول كل مفاصل الملاك صاحب الساطور، ورغم ذلك فقد كان يتساءل عمّا إذا كان هذا المقدار من الثقة والسلطة المعهود بهما إلى رجل واحد هو السبب في شقائه، وعمّا إذا كان شريكي مدى الحياة هو الذي حوله إلى ثور محاولاً تجريده من جلده الطبيعي، جلد زعيم القرية، كي ينزله إلى مستوى رجل عاجز في قصر، وغير قادر على صياغة أي أمر إن لم يكن قد تم تنفيذه وأيضاً بسبب هذ الابتكار السيئ المتعلق بإبراز شخصية ليست شخصيته أمام الملأ عندما كان هندي الأزمنة السعيدة الحافي القدمين كفيلاً وحده بفتح ممر عبر الحشود بواسطة ساطوره صارخاً تنحوا جانباً أيها الأوغاد اتركوا الزعيم يمرّ، من دون التوصل إلى تمييز الوطنيين الجيدين من المنافقين في تلك العاصفة من صيحات الترحيب إذ أننا لم نكن قد اكتشفنا بعد أن الأكثر شبهة هم الذين كانوا يصرخون بأصوات أعلى، عاش الفحل، عاش الجنرال، أما الآن فقد تبين عجز أسلحة السلطة عن إيجاد الملكة البائسة التي فرّت من سور رغباته رغم مناعته، سحقاً إذاً، وترك أحجار الدومينو تتدحرج على الأرض، وكان ينقطع عن اللعب في أشده ومن دون مبرر واضح مكتئباً من رؤيا مفاجئة تقول إن الجميع ينتهون بأن يجدوا مكاناً لهم في هذا العالم، الجميع ما عداه هو، مدركاً للمرّة الأولى أن العَرَق كان يبلل قميصه في ساعة غير مبرّرة، شاعراً بنتونة الجيف التي كانت تتصاعد مع بخار البحر وبعزف الناي الهادئ من خصيته التي ضايقتها رطوبة الحرّ، نعم إنه الحرّ، كان يخاطب نفسه وهو قليل الاقتناع، محاولاً من نافذته أن يتقرّى الصفاء الغريب في المدينة الجامدة التي يبدو أن العناصر الحيّة الوحيدة فيها هي أسراب العقبان التي كانت

تفرّ مذعورة من أفاريز ملجأ العجزة، والأعمى في ساحة الأسلحة الذي أدرك الحضور المرتبك للشيخ عبر نافذة البيت المدني وأشار إليه بعكازه بإشارة لجوجة، وصرح له بشيء لم يتمكن من فهمه وأوله على أنه علامة إضافية لهذا الشعور المزعج بأن حدثاً ما سيحصل، نعم كرّر لنفسه للمرّة الثانية خلال ذلك الاثنين المرهق، إنها الحرارة، ثم نام فوراً، مهدهداً بنقر المطر على زجاج ضبابيّ يصفّي نوماً عكراً، غير أنه استيقظ مذعوراً، هلعاً، مَنْ هناك، صرخ كان ذلك قلبه الذي أنهكه صمت الديوك الغريب عند طلوع النهار، أحس بأن سفينة الكون قد رست في ميناء أثناء نومه، كان يسبح في تدفق بخاري، أما حيوانات الأرض والسماء التي لها القدرة على استشفاف الموت بعيداً عن التنبؤات البلهاء والعلوم الإنسانية الأكثر تقدماً فقد أخرسها الرعب، اختفى الهواء، وغيّر الزمان وجهته، أحسّ وهو يقعي على مؤخرته، أن قلبه يزداد انتفاخاً مع كل خفقة، وأن طبلتيْ أذنيه تنفجران، ومادّة غالية تنحدر من منخريْه، إنه الموت، فكر، كانت بدلته ملطّخة بالدم، وقبل أن يعي بأنْ كلا سيدي الجنرال، إنها الزوبعة الأكثر تخريباً من بين تلك التي جزّأت مملكة الكاريبي الملتحمة إلى سلسلة من الجزر. كانت كارثة خفيّة إلى حدّ أن غريزته المنذرة كانت الوحيدة التي اكتشفتها قبل أن يجنّ جنون الكلاب والدجاج، وكانت مباغتة إلى درجة كاد يتعذّر العثور لها على اسم امرأة في جلبة الضباط المرتاعين الذين جاؤوا ليعلموني، الآن أصبح الأمر مؤكداً سيدي الجنرال، هذه البلاد هالكة، هالكة تماماً، لكنه أمر بتدعيم الأبواب والنوافذ بدعائم صلبة، فحجز الحرس في الأروقة، وأغلق على الدجاج والأبقار في مكاتب الطابق الأوّل، وسمّر كل شيء في مكانه،

من ساحة الأسلحة إلى آخر تخوم مملكة القلق والرعب، ومكث الوطن بأسره ثابتاً في مكانه، مع هذا الأمر، بلا تنبيه ومع أول بادرة أطلقوا مرتين في الهواء ولتكن الطلقة الثالثة بلا رحمة، ورغم ذلك لم يصمد شيء أمام الاكتساح العنيف للرياح المزوبعة التي اقتلعت المصاريع المصفّحة للمدخل الرئيسي وأخذت معها أبقاري نحو السماء، غير أنه وهو تحت مفعول السحر لم يدرك المنبع الأساسي لتلك الفرقعة من الأمطار العمودية التي كانت تنشر تحتها وابلاً بركانياً من بقايا الشرفات والحيوانات الآتية من قلب الغابات البحرية، لم يكن له أيضاً الصفاء الكافي ليفكّر في أبعاد الخراب الذي أحدثته الكارثة، كلا، كان يمشي في قلب الطوفان وهو يتذوّق مسك الضّغينة متسائلاً أين أنت يا يانويلا سانشيز ريقي المرّ، تبّاً، أين تراك اندسست كي تهربي من بليّة ثأري هذه. وطيلة الهدوء الذي تلا العاصفة وجد نفسه برفقة مساعديه المقرّبين وهم يجذفون على متن قارب مرفأ في قاعة الاجتماعات وكأنهم في صحفة حساء ملأى بحصى قاعة الاجتماعات، ثم خرجوا من باب المرآب وهم يجذفون من دون عقبات ما بين جذوع النخيل والفوانيس المقلوبة في ساحة الأسلحة، ودخلوا البحيرة الميتة قرب الكاتدرائية، فظل للحظة، مأخوذاً بألق من الصفاء: لم يكن ولن يكون أبداً سيّد سلطته الكاملة، وبقي أثر هذا اليقين المرّ يعذبه في حين كان المركب يجتاز مواضع متفاوتة الكثافة حسب تغيّر ألوان الزخارف الزجاجية وأنوارها على أوراق الذهب وعناقيد الزمرّد في مذبح الكنيسة الرئيسي، وشواهد قبور حكّام الأقاليم الذين دفنوا أحياء، وكذلك بلاط الأساقفة الذين ماتوا من جرّاء خيبات الأمل، والنّتوء الصّواني على الضريح الفارغ لأميرال البحر

الأوقيانوسي مع سفن الكارافيل الثلاث المرسومة على جانبيه وقد أمر ببنائه إذا أراد يوماً أن تنام عظامه بيننا، خرجنا من قناة الكنيسة نحو باحة داخلية تحولّت إلى حوض أسماك مضيء ذي قاع من الخزف حيث كانت تتيه أسراب الأسماك بين أعذاق النّاردين وعبّاد الشمس، تسلّقنا الأسرّة المعتمة في دير الباسكيات المترهّبات، رأينا الحجرات المهجورة، رأينا البيان القيثاريّ الغارق في البركة الداخلية لقاعة الإنشاد، رأينا تحت المياه الراكدة في قاعة الأكل طائفة العذارى الغريقات وهنّ على مناضدهنّ أمام المائدة الطويلة الجاهزة، رأى وهو يخرج من الشرفات امتداد البحيرة الواسع تحت السماء المتألّقة وكان ذلك موقع المدينة القديم، عندئذ صدّق النبأ لأول مرة سيدي الجنرال هذه الكارثة ضربت الكون بأسره لا لشيء إلا لتخلصني من تنكيل مانويلا سانشيز، سحقاً إذاً، الربّ يملك وسائل أكثر همجيّة إذا قورنت بوسائلنا، كان يفكر راضياً وهو ينظر إلى الوحل العكر حيث ارتفعت المدينة، مساحة شاسعة يطفو فوقها عالم كامل من الدجاج الغريق ولم تكن تعيقها سوى نواقيس الكاتدرائية، ومصباح المنارة، والشرفات المشمسة في المباني الجميلة لحيّ حكام الأقاليم، والجزر الموشاة بروابي المرفأ القديم لنقل العبيد حيث كان يخيم غرقى الإعصار، ونحن، آخر الناجين الجاحدين كنا نتأمل المرور الصامت للمركب المدهون بألوان الراية ما بين طحالب السرخس التي تكوّنت من جثث دجاج لا حياة فيها، رأينا العينين الحزينتين، الشفتين الذاويتين، اليد المترويّة في رسم إشارات الصليب، إشارات التبريك كي تنقطع الأمطار وتشرق الشمس، وعندها بعث الدجاج إلى الحياة، وأمر المياه أن انخفضي فانخفضت وأخذت الأجراس

تدق، والأسهم الناريّة ترتفع مبتهجة، والأبواق تفرقع صاخبة، إذْ كان هنالك احتفال بوضع الحجر الأول لتجديد البناء، وكان الحشد المجتمع في ساحة الأسلحة يهتف باسم المحسن للوطن الذي طرد تنّين الإعصار، عندما أمسك به أحدهم من ذراعه وقاده حتى الشرفة، الشعب في حاجة إلى كلماتك التشجيعية الآن أكثر من أي وقت آخر، فلم يقدر على التهرّب وسمع الصخب الجماعي الذي تغلغل إلى أحشائه مثل ريح بحر هائج، أن عاش الفحل، ذلك أنه منذ اليوم الأول لحكمه عرف جيداً الضيق الناجم من كونه كان يشاهد من قبل المدينة بأكملها في وقت واحد، تحجّرت كلماته، وأدرك عبر بريق قاتل من الصفاء أنه لم يكن ولن يكون من الشجاعة بحيث يتمكن من الظهور بكامل جسده فوق لجّة الحشود، وبطريقة لم نلمح معها سوى صورته الاعتيادية المألوفة، سحابة بخارية لشيخ يتعذّر إمساكه وهو يرتدي الكتان منح بركته الصامتة من أعلى الشرفة الرئاسية ثم اختفى في الحين، ورغم ذلك كانت هذه الرؤية العابرة كافية لتغذية ثقتنا بأنه هنا فعلاً، إنه يسهر على حياتنا وعلى رقادنا تحت ظل أشجار التمر الهندي التاريخية في قصر الضاحية، كان يقبع متأملاً في كرسي السوحر الهزاز، وكوب شراب الليمون في يده لا يزال كاملاً وهو يستمع إلى صوت حبوب الذرة التي كانت أمه بندثيون ألفارادو تدقها في كرنيبة(٢)، في الساعة الثالثة وعبر انعكاس الحرارة رآها تمسك بدجاجة رمادية وتضعها تحت ذراعها ثم تلوي لها عنقها بنوع من الرقة في حين كانت تقول لي بنبرة الأمومة وهي تمعن النظر في عينيّ لقد أصبحت مسلولاً لفرط ما تفكر من دون أن تقتات كما يجب، ابق هنا لتناول الغذاء، توسلت إليه، محاولة إغراءه بتلك الدّجاجة المخنوقة

التي كانت تقبض عليها بكلتا يديها خوفاً من أن تفلت منها بفعل حشرجة الاحتضار، حسناً، أمّاه، سأبقى، أجاب مغمض العينين في كرسي السوحر الهزّاز حتى مجيء الليل، من دون أن ينام، مهدهداً بالرائحة الشهيّة المنبعثة من الدّجاجة وهي تطبخ الآن في القدر، مراقباً مجرى حياتنا، إذ أن الشيء الوحيد الذي كان يطمئننا على وجه الأرض إنما كان اليقين بأنه حاضر هنا ومعصوم من الطاعون ومن الإعصار، معصوم من مكر مانويلا سانشيز، معصوم من الزمن، مستسلم للغبطة المسيحية المترتبة على كونه يفكر من أجلنا، مدركاً جيداً كما كنا ندرك أيضاً أنه لم يكن يتوجب عليه أن يتخذ من أجلنا أي قرار لا يكون في مستوانا، ذلك أنه لا يدين بنجاته لشجاعته الخارقة أو لحذره اللامتناهي وإنما لكونه كان الوحيد بيننا الذي عرف الحجم الحقيقي لقدرنا، ولقد وصل إلى هنالك، أمّاه، بعد رحلة مضنية، وجلس ليستريح على آخر صخرة تاريخية في الحدود الشرقية النائية حيث نقش اسم وتاريخ آخر جندي مات دفاعاً عن سلامة الوطن، لقد رأى الكآبة الجليدية على مدينة الأمة المجاورة، رأى ضباب الصباح المثقل برائحة السخام، والرجال المرتدين بدلات الاحتفال في عربات الترام الكهربائية، والمآتم الرّفيعة في عربات الموتى القوطية التي كانت تسحبها خيول حراثة بيضاء مع حزمات من الرّيش، والأطفال الذين كانوا ينامون ملتفّين بالجرائد في فناء الكاتدرائية، سحقاً إذاً، يا للقوم غريبي الأطوار، صرخ، كأنهم شعراء، كلا، سيدي الجنرال إنهم «الغودوس[٣]» في السلطة، أجيب، ثم عاد من رحلته تلك ساخطاً بفعل الرؤيا، لا شيء يشبه ريح الجوافات المتعفّنة وضجيج الأسواق وذلك الشعور بالإرهاق عندما يخيم المساء على ذلك

الوطن البائس الذي لم يعد إلى عبور حدوده، ليس خوفاً من ترك الكرسي الذي كان جالساً عليه، كما كان يؤكد ذلك أعداؤه، بل لأن الإنسان يشبه شجرة غابات، أماه، يشبه حيوان غابات لا يترك عرينه إلا لكي يأكل، كان يقول، متذكراً في ساعة القيلولة وصفاء الاسترخاء المميت، ذلك الخميس المملّ، في شهر ناءٍ من شهور أغسطس عندما تجرّأ على الاعتراف بأنه يعرف حدود طموحه، لقد أسرّ بذلك لمحارب ينتمي إلى عصر آخر وبلاد أخرى وكان قد استقبله في خلوة مكتبه المضاء قليلاً والمثقل بالحرارة، كان شاباً خجولاً، مفعماً بالكبرياء وموسوماً دائماً بعلامات العزلة، مكث بلا حراك عند العتبة من دون أن يقدر على اجتيازها حتى اللحظة التي اعتادت فيها عيناه النور الخفيف المعطّر باحتراق نبات الغليسين في الحرّ فتمكن أخيراً من تبينه جالساً على كرسيه الهزّاز، وقبضته ثابتة على الطاولة العارية وكان من الرّتابة والتفاهة بحيث لم تكن له أية صلة شبه بصورته العمومية، بلا مرافقين وبلا أسلحة، وقميصه مبلل بعرق رجل فانٍ في حين كانت أوراق قويصه تلتصق بصدغيه لتزيل عن رأسه الصداع، وعندما اقتنعتُ، يا للحقيقة التي لا تصدّق، أن هذا الشيخ الصدئ هو فعلاً معبود طفولتنا، والتجسيد الأكثر نقاء لمجد أحلامنا، عندها فقط دخل إلى المكتب وأفصح عن هويته وهو يتكلم بصوت جليّ وحازم مثل شخص يأمل أن يُقدّر بفضل أعماله، شدّ على يدي بيده النّاعمة الدنيئة، مثل يد مطران، وأبدى اهتماماً محيّراً بالأحلام العجيبة لهذا الغريب الذي جاء يطلب أسلحة وتضامناً مع قضية هي قضيتكم أيضاً، يا صاحب السموّ، كان يرغب في المساعدة العسكرية والدعم السياسي من أجل حرب لا هوادة

فيها من شأنها أن تقضي نهائياً على كلّ الأنظمة المحافظة من ألاسكا إلى باتاغونيا، ولقد تأثر بحماسته إلى حدّ أنه سأله لماذا تحشر نفسك في هذا المأزق، سحقاً إذاً، لماذا تريد الموت، فما كان من الغريب إلا أن أجابه من دون أي أثر للخجل ليس هناك من مجد أسمى من الموت فداءً للوطن، يا صاحب السموّ، عندئذٍ أجابه مبتسماً من الشفقة لا مجال لارتكاب حماقات، أيها الشاب، الوطن يعني البقاء على قيد الحياة، قال له، إنه هذا، قال له فاتحاً قبضته المستندة إلى الطاولة، ثم أظهر له تلك الكرة الزجاجية في باطن يده، شيء نملكه أو لا نملكه، والذي يملكه إنما يملكه تماماً، أيها الشاب، الوطن كذلك، قال له وهو يصرفه بضربات كفّ خفيفة على ظهره من دون أن يقدم له شيئاً، ولو كان وعداً يعزّيه، وصرخ بالمرافق الذي أعاد إغلاق الباب دعه وشأنه، لا تُضعْ وقتك في مراقبته، إنه محموم ولا يصلح لشيء. هذه الجملة لم نسمعها فيما بعد حتى اليوم الذي أصدر فيه، بعد الزوبعة، عفواً جديداً عن المساجين السياسيين وأمر بعودة جميع المنفيين ما عدا، بطبيعة الحال، الكتّاب، هؤلاء لا جدال، قال، يعانون من الحمّى تحت ريشهم مثل الديوك الأصيلة عندما تهتاج، صدّقوني إنهم لا يصلحون لشيء إلا إذا كانت هناك فائدة منهم، إنهم أسوأ من السياسيين، أسوأ من كهنة الكنيسة، يمكنكم ملاحظة ذلك، أما الآخرون فعليهم أن يعودوا من دون تمييز بين ألوانهم إذ يجب أن يشاد الوطن بجهود الجميع، ولم يكن على أيّ كان أن يجهل بأنه غدا المولى من جديد وسيّد سلطته كلّها بمساندة شرسة قدّمها عدد من قطاعات القوات المسلحة التي عاد عناصرها إلى مراكزهم منذ أن وزّع على أعضاء القيادة العليا شحنات المؤن والأدوية

ولوازم الإسعاف المدني من المساعدات الخارجية، ومنذ أن صارت عائلات وزرائه تقضي يوم الأحد على الشاطئ في المشافي القابلة للتفكيك وفي خيام الصليب الأحمر، وتبيع أمصال الدم وأطناناً من مسحوق الحليب إلى وزارة الصحة فيعيد وزير الصحة بدوره بيعها إلى دور العجزة، ولقد قايض ضباط الأركان طموحاتهم بمناقصات في الأشغال العامة وبرامج تدريبيّة جديدة تمّ تمويلها بفضل القروض الاستعجالية التي قدّمها السفير فارن حتى تتمكن سفن بلاده من الصيد في كل مكان من مياهنا الإقليمية، سحقاً إذاً، من يملكه إنّما يملكه تماماً كان يحدّث نفسه متذكراً الكرة الزجاجية التي أبداها لذلك الحالم المسكين الذي اختفى من دون أن يترك أثراً، وكان متأثراً بإعادة البناء بحيث كان يشرف شخصياً على أدق التفاصيل مثلما كانت الحال في بداية توليه السلطة، ويتخبط في مستنقعات الشوارع وهو في زي صياد للبطّ البري حتى لا يتم تشييد مدينة مختلفة عن تلك التي تصوّرها لمجده في أحلام يقظته، أحلام الغريق المتوحّد، وكان يأمر المهندسين ارفعوا هذه البيوت من هنا وضعوها في مكان ما حيث لا تعيق، فكانت ترفع، زيدوا مترين في ارتفاع هذا البرج حتى تسهل رؤية السفن في البحر، فكان يعلّى، اجعلوا هذا النهر يجري في الاتجاه المعاكس، فكان مجرى النهر يعكس، من دون تذمّر ومن دون أدنى وهن في العزيمة، كان منهكاً في الترميم المحموم، ومنصرفاً إلى نشاطه وناسياً أبسط شؤون الدولة حتى ذلك اليوم الذي اصطدم فيه بالواقع عندما أثار مساعد له عن طريق الخطأ وهو شارد الذهن مشكلة الأطفال، أيّ أطفال سأل من أعلى سديم ركامه، الأطفال سيدي الجنرال، ولكنْ أيّ أطفال يا للفوضى، ذلك أنه وحتى ذلك الوقت

لم يكن يعلم أن الجيش كان يحجز سراً كل الأطفال الذين يسحبون الأرقام الرابحة في اليانصيب، تصوّروا لو عنّ لهم أن يكشفوا لماذا كان الرئيس يربح دائماً، أما أهاليهم المحتجّون فكانت تتم إجابتهم كلا كلا ليس ذلك واضحاً، وفي انتظار إيجاد تبرير أفضل، كان يقال لهم، إنها أكاذيب يطلقها المشردون، افتراءات من المعارضة، أما أولئك الذين ثاروا أمام إحدى الثكنات فقد تمّ تشتيتهم بمدافع الهاون بصرف النظر عن مذبحة صغيرة لم نعلمك بها لئلا نزعجك سيدي الجنرال، ولكن ينبغي أن تعرف أن الأطفال مسجونون داخل قلعة الميناء، إنهم هناك على ما يرام وفي صحة جيدة مع معنويات عالية جداً، ورغم ذلك فإن هناك أمراً يضايقنا لم نعد نعرف ماذا سنفعل بهم سيدي الجنرال، وعددهم ألفان تقريباً. وهذه الطريقة الناجحة لربح الجائزة الكبرى وجدها من دون أن يبحث عنها، بمعاينة الأرقام المدمشقة على كريات البليياردو، كانت الفكرة من البساطة والروعة بحيث لم يكن يصدقها هو نفسه، ولقد انبثقتْ عندما رأى الحشود المتلهّفة غامرة باحة الأسلحة منذ منتصف النهار وهي تقوم بحسابات متوقّعة للأرقام في انتظار المعجزة تحت أشعّة الشمس المحرقة وبين هتافات الامتنان، ولافتات المجد الأبدي للمحسن الذي يوزّع السعادة، كان هناك موسيقيون وبهلوانيون ومشارب خمور ومتاجر بطاطا مقلية ودواليب تنطوي على مغالطة تاريخية ويانصيب حيوانات قديمة، أنقاض عوالم أخرى وعصور أخرى على هامش الحظّ تُغِيرُ على أطراف الغنى محاولة الاغتناء ببقايا الكثير من الأوهام، في الساعة الثالثة فتحت نافذة الشرفة وتم إصعاد ثلاثة أطفال في سنّ السابعة اختيروا اتفاقاً من قبل الحشد بعد التحقّق أمام الشهود من أن

كل كيس يحتوي على عشر كرات بلياردو مرقمة من واحد إلى صفر، انتبهوا، سيداتي سادتي، امسك الجمهور أنفاسه، كل طفل من الأطفال الثلاثة المعصوبي العيون سيخرج كرة من كيسه، سنبدأ بهذا الطفل صاحب الكيس الأزرق، ثم يأتي دور صاحب الكيس الأحمر وأخيراً الكيس الأصفر، كان كل طفل يدخل يده في كيسه، فيجسّون في الأسفل تسع كرات متشابهة وكرة مثلجة، وكانوا يستجيبون لأوامرنا التي أوعزنا لهم بها خفية، فيمسكون بالكرة المثلجة، ويظهرونها للجمهور معلنين عن رقمها، وهكذا يتمّ سحب الكرات الثلاث المبرّدة في الثلج طيلة أيام عديدة مع أرقامها الثلاثة، أرقام البطاقة التي احتفظ بها لنفسه، غير أننا لم نفكر لحظة واحدة أن الأطفال يمكن أن يفشوا السرّ سيدي الجنرال، وعندما تذكرنا ذلك كان الوقت متأخراً بحيث لم يكن لنا وسيلة أخرى سوى جعلهم يختفون ثلاثة ثلاثة، ثم خمسة خمسة، ثم عشرين عشرين، تصوّر ذلك قليلاً سيدي الجنرال، وعندما شدّ أكثر على خيط الحقيقة انتهى باكتشاف أن كلّ ضبّاط القيادة العليا في سلاح البرّ والبحر والجوّ كانوا متورطين في عملية هذا الصيد الرائع من اليانصيب الوطني، وعلم بأن الأطفال الأول صعدوا إلى الشرفة بموافقة ذويهم الذين دربوهم من ناحية أخرى على معطيات العلم الوهمي للتمكن من التعرف بواسطة اللمس على الأرقام المرصّعة في الكرات العاجية، أما الأطفال اللاحقون فقد حجزوا بالقوة إذْ سرت شائعة بأن الأطفال الذين يصعدون إلى الشرفة لا ينزلون منها أبداً، فكان الأهالي يخفون أبناءهم ويدفنون أطفالهم أحياء في منتصف الليل حين تمرّ الدوريات بحثاً عنهم، ولم تكن دوريات الصدام تحاصر ساحة الأسلحة لتهدئة الجمهور الهائج، كما قيل

له، بل لكي تبعد الحشود التي تتدافع مثل القطعان وهي تهتف مهدّدة بالموت وحتى الدبلوماسيون الذين طلبوا جلسة لتقديم وساطتهم في النزاع كانوا يصطدمون بالرفض المطلق من الموظفين أنفسهم الذين كانوا يصفون أمراضه الغريبة المختلفة بأنها أمراض حقيقية، كلا إنه لا يستطيع استقبالهم لأن الضفادع توالدتْ في بطنه، إنه مجبر على النوم واقفاً كي لا ينسلخ بقنازع الإغوانة[٤] التي تنمو في عموده الفقري، لقد أخفيت عنه كل رسائل الاحتجاج ومطالب العفو والاسترحام المرسلة من العالم بأسره، واختُلست منه برقية من قداسة البابا نُعبّر فيها عن قلقنا البابوي لمصير الأبرياء، لم يبق مكان في السجون لأقرباء جدد متمردين سيدي الجنرال، لم يعد هناك أطفال من أجل سحب يا نصيب يوم الاثنين، يا للفوضى، أية فوضى وضعنا فيها أنفسنا. ورغم ذلك لم يسبر العمق الحقيقي للهوّة إلا بعد أن اكتشف الأطفال المتكومين مثل ماشية المسلخ في الساحة الداخلية لقلعة الميناء، رآهم يخرجون من الخلوات مثل قطيع من الماعز يتشتّت منبهراً بقوّة أشعة الشمس بعد شهور طويلة من الرعب الليلي، كانوا تائهين في الضوء وكان عددهم ضخماً بحيث خيل لعينيه أنهما لا تريان ألفي مخلوق منفصلين عن بعضهم وإنما تريان حيواناً ضخماً لا شكل له يعبق بأثر مبهم من جلدٍ لوحته الشمس، فيملأ المكان بجلبة تشبه جلبة مياه الأعماق ويتلافى الأبادة بفضل طبيعته المتعددة، كلا لم يكن من الممكن إبادة تلك الكمية من الحياة من دون ترك سحابة رعب من شأنها أن تدور حول الأرض، سحقاً إذاً، لا شيء يمكن فعله، ثم دعا القيادة العليا للاجتماع مستسلماً، أربعة عشر ضابطاً مرتجفاً وأكثر خطراً من أي وقت سابق إذ لم يسبق لهم أن ارتاعوا في السابق مثل

الآن، تروّى جيّداً كي يغرز بصره في عيني كل واحد منهم، واحداً واحداً، عندها أدرك أنه كان وحيداً ضدّ الجميع، حافظ حينئذ على رأسه مرتفعاً، صلّب صوته، وحثّهم على الوحدة الآن أكثر من أي وقت مضى من أجل هيبة القوات المسلحة وشرفها، ثم عفا عنهم عفواً شاملاً وقبضته مغلقة على الطاولة كي لا تفاجئهم رجفة تردّده وأمرهم من ثمّ بالبقاء في منازلهم للقيام بواجباتهم بتلك الحماسة نفسها وتلك السطوة نفسها، اللتيْن عهدهما فيهم، أعلن بقرار سام ونهائي أنه لم يحدث شيء هنا، رفعت الجلسة، أتعهّد بكل شيء. وكمجرّد إجراءات احتياطية غادر الأطفال قلعة الميناء وتم إرسالهم في مقطورات ليلية نحو المناطق الأقل سكاناً في حين كان هو يجابه العاصفة التي أحدثها التصريح الرسمي والعلني، كلا الأمر ليس واضحاً، ليس واضحاً البتّة، لا يوجد أي طفل بين يدي السلطات ليس هذا فحسب بل لا يوجد أي سجين من أيّ نوعٍ كان في السجون، أمّا النبأ الكاذب المتعلّق بالحجز الجماعي فليس سوى أقاويل مشردين هدفها بلبلة العقول، أبواب البلاد مشرعة أمام كل من يريد معرفة الحقيقة، تعالوا لتروا ذلك بأعينكم، وجاؤوا، جاءت لجنة من عصبة الأمم لتحرك أحجار الأمة الأكثر خفاء واستجوبت من شاءت كما شاءت وكانت استجواباتها من التدقيق بحيث انتهت بندثيون ألفارادو بأن سألت ولكن من هم هؤلاء المتطفّلون المرتدون ثياباً تشبه ثياب مُناجي الأرواح الذين دخلوا إلى غرفتي باحثين عن ألفي طفل تحت الأسرّة وفي سلة خياطتي وفي أصص التلوين، والذين اعترفوا في النهاية علناً بأنهم وجدوا السجون مغلقة، والوطن آمناً، وكل شيء في مكانه، وإنهم لم يكتشفوا أي دليل يسمح بتأكيد إشاعات الريبة والتحفّظ التي تذهب

إلى أن مبادئ حقوق الإنسان قد تكون انتهكت بالنّوايا أو بالفعل بسبب العجلة أو بسبب السهو، نم مرتاح البال سيدي الجنرال، لقد رحلوا، حيّاهم من نافذته بمنديل ذي حاشية مطرّزة وبشعورٍ بالانفراج ذلك أن شيئاً ما أشرف على نهايته، وداعاً، يا عصابة المغفّلين، بحراً هادئاً وسفراً سعيداً، قال متنهّداً، والآن انتهى الإزعاج، غير أن الجنرال رودريغودي أغيلار ذكّره بأنْ كلا، الإزعاج لم ينته سيدي الجنرال، لأن الأطفال لا يزالون موجودين، ضرب على جبينه، تبّاً، لقد نسيتهم تماماً، ماذا ترى سنفعل معهم. حاول صرف هذه الفكرة السيئة، وفي انتظار التوصّل إلى إحدى الطرق التعسّفية، أمر بإخراج الأطفال من مخبئهم في الغابات، فتم جلبهم في الاتجاه المعاكس نحو القرى ذات الأمطار الأبديّة حيث لا توجد أية ريح ماكرة من شأنها أن تنشر صراخهم، وحيث كانت الحيوانات البرية تتعفن سائرة، حيث النيلوفر ينمو في الكلمات، وحيث الأخطبوط يسبح بين الأشجار، أمر بحملهم إلى كهوف آندينية ذات ضباب مستمر حتى لا يعرف أحد أين هم، أرسل لهم بحبوب من ملبّس الكينا وأغطية من الصوف عندما علم أنهم كانوا يرتجفون من الحمّى بعد أن ظلّوا أياماً وأياماً غارقين في الوحل حتى رقابهم في حقول الرزّ كي يتلافوا المراقبين في طائرات الصليب الأحمر، أمر بصبغ أشعة الشمس ولألأة النجوم باللون الأحمر كي يشفيهم من الحمّى القرمزيّة، وبرشّهم من الأجواء بالمساحيق المبيدة للحشرات حتى لا تلتهمهم يرقات أشجار الموز، كان يرسل إليهم أمطاراً من الحلوى وجروفاً ثلجيّة من المرطبات المثلجة بالقشدة فتسقط من طائراته بالمظلات المحمّلة بألعاب عيد الميلاد لكي لا يحرموا من فرحهم بينما هو يبحث عن حلّ سحري، وهكذا وضع

نفسه في مأمن من أذيّة ذاكرته، ونسيهم، غطس في بركة مهجورة من ليالي السهاد البيتي، استمع إلى الدقات المعدنيّة معلنة الساعة التاسعة، أمسك بالدجاجات التي كانت تنام على أفاريز البيت المدني وأدخلها إلى القنّ، ولم يكن قد انتهى من تعداد الدواجن الساكنة فوق مجاثمها عندما دخلت إحدى خلاسيات البيت لتجمع البيض، أحس بإشعاع شبابها الدافئ، باغت ضجة صدارها وارتمى فوقها، انتبهْ سيدي الجنرال، همهمتْ مرتجفة، ستكسر بيضي، فلنكسره، سحقاً إذاً، أجاب وأوقعها بخشونة من دون أن يجردها من ثيابها أو يتجرد هو من ثيابه، كان يتألم رغبة منه في نسيان سعادة هاربة في ذلك الثلاثاء المغطى ببراز أخضر لحيوانات نائمة، انزلق وتدحرج في دوار وهمي لهوّة مخدّدة بأسجاف هروب دكناء، وبآثار عرق، وآهات امرأة شهوانية وتهديدات نسيان ماكرة، وترك في سقوطة خطاً منحنياً من الرنين اللاهث من مهمازه الذهبي الذي صار نيزكاً، وسحابة حصى من صدره كانت تحصر أنفاس البعل المستحرم، وتباكي الجرو الصغير، ورعداً مكتوماً من الانفجار الآتي لصاعقة الموت، غير أنه وجد من جديد، في قعر الهاوية، التّبن الملطّخ ونوم الدجاجات المضطرب، وأسى الخلاسية التي كانت تنهض وفستانها ملطخ بدبس أصفر، لقد نبّهتك إلى ذلك سيدي الجنرال، لقد تهشم البيض، دمدم محاولاً السيطرة على غيظه من جراء حبّ آخر خال من الحبّ، احصي كم كانت هناك من بيضة قال لها، سوف أقتطعها من أجرتك، ثم ذهب، كانت الساعة العاشرة، تفحص لثات بقراته في الإسطبل لثة بعد لثة، رأى إحدى نسائه يمزّقها الألم على أرض بيتها الخشبي في اللحظة التي كانت فيها القابلة تقتلع من أحشائها وليداً

مدمّى وحبله السري ملفوف حول عنقه، إنه ذكر، أيّ اسم نعطيه سيدي الجنرال، الاسم الذي ترغبان فيه، أجاب، الساعة الحادية عشرة، وككل مساء منذ يومه الأوّل على رأس نظامه، عدّ الحرس، وتأكد من إغلاق الأبواب، وغطّى أقفاص الطيور، وأطفأ الأنوار، منتصف الليل، السلام يخيم على الوطن، العالم نائم، توجه نحو غرفته عبر بيت غارق في الظلام كانت أجنحة المنارة تدور فيه ناشرة صفاء أسحار متلاشية، علّق في الموضع المعتاد مصباح الانطلاق نحو الكارثة، أغلق الرتاجات الثلاثة، المزاليج الثلاثة، والدعامات الثلاث، جلس على سطله الصحي وشرع أثناء إفرازه لبرازه العصفوري يداعب خصيته المفتوقة، حتى اللحظة التي تلاشى فيها التشنج، ونام الولد المزعج في يده، سكن الألم لكنه عاد إلى الظهور فوراً عبر برق من الذّعر عندما دخلت هبّة ريح من النافذة، ريح مقبلة من تخوم صحارى ملح البارود نشرت في الغرفة نشارة أغنية لحشد من الناس يا أيها الولد السائل عن فارس نأى في ساحة القتال، الحشد يتأوّه حسرة يا للألم وحسرة الرجال، الحشد يصعد إلى برج المنارة لكي يرى فارسه ويعلن البشارة، الحشد يراه عائداً لكنه أتى في صندوق من المخمل يا للألم ويا لها من خسارة، كانت الجوقة من البعد وعدد أفرادها من الكثرة بحيث بدا كما لو كان ينام مهدهداً بسماع النجوم تغنّي، لكنه نهضَ ساخطاً، كفَى يا للفوضى، صرخ، إمّا هم وإما أنا، وكانوا هم، إذ أنه قبل طلوع النهار أمر بنقل الأطفال على متن زورق إنقاذ محمّل بالإسمنت، فأخذوهم وهم يغنون حتى بلغوا بهم حدود المياه الإقليمية وهناك أرسلوهم بعبوة ديناميت إلى العالم الآخر، وبعد أن أتمّ الضباط الثلاثة جريمتهم من دون أن ينقطعوا عن الغناء ومن

دون أي أثر للألم انتصبوا أمامه في حالة استعداد، سيدي الجنرال لقد نُفذّت أوامرك فكافأهم برتبتين جديدتين وقلّدهم صليب الخدمات الأمينة والصادقة، ثم أعدمهم من دون ضجّة مثلهم مثل سائر الأنذال إذ أنّ هناك أوامر يمكن أن تعطى دون أن تنفذ، سحقاً إذاً، يا للصبيان المساكين. وكانت تجارب أخرى غاشمة تأتي لتؤكد يقينه القديم الذي يعتبر بموجبه أن العدوّ اللدود إنما يكمن في داخلنا وفي ائتمان القلب، نعم لقد كان الرجال الذين يسلّحهم ويقدم لهم امتيازات لدعم نظامه ينتهون عاجلاً أو آجلاً بأن يبصقوا على اليد التي كانت تطعمهم، فكان يسحقهم بضربة من قدمه، ويأتي بآخرين من العدم، ليرفعهم إلى أعلى الرتب بإشارة من إصبعه حسب حيويّة إلهامه، أنت أجعلك كابتاناً، وأنت كولونيلاً وأنت جنرالاً، كل المتبقين سوف يكونون برتبة ملازم أوّل يا للفوضى، كان يراهم يكبرون في بدلاتهم حتى توشك أن تتفتق، كان ينساهم، ويأتي ظرف مشابه لاكتشاف ألفي طفل محجوز ليدرك بأن ليس هناك رجل واحد استغل ثقته وإنما قسم من قيادة القوات المسلحة التي ليست فالحة إلا في زيادة استهلاك كمية الحليب بما أنها في ساعات الشدّة تتغوّط في الصحن الذي سبق وأن أكلت فيه، لقد حبلتُ بهم كلهم، سحقاً إذاً، لقد أخرجتهم من أحشائي، لقد حصّل لهم الاحترام والخبز، ورغم ذلك لم يتمتع بلحظة واحدة ما دام عليه أن يحذر طموحهم، كان يحتفظ بأخطرهم قربه حتى يراقبهم أحسن، ويرسل بالأقل جرأة إلى مراكز الحدود، وبسببهم تقبل احتلال المارينز، أماه، وليس من أجل مكافحة الحمّى الصفراء كما كتب ذلك السفير تومبسون في بلاغ رسمي، أو من أجل حمايته من المعارضة الشعبية، كا ادّعى السياسيون المنفيون،

وإنما لتعليم جنودنا كيف يكونون أناساً كما يجب، الأمر الذي تمّ أماه، لكلّ عمله، لقد علموه كيف يمشي بزوجي حذاء، ويمسح بالورق، ويستخدم غشاءات إنكليزية واقية، وكشفوا لي سرّ تعهد الخدمات الموازية لإثارة خصومات بين العسكريين من شأنها أن تشل حركتهم، ابتكروا من أجلي مكتب الأمن الإقليمي، والوكالة العامة للاستخبارات، والمصلحة الوطنية للنظام العام وعدداً آخر من الأمور المشابهة التي انتهيت أنا شخصياً بأن نسيتها، أجهزة متماثلة كان يعتبرها مختلفة لكي يتمكن من الحكم بأكثر اطمئنان ممكن داخل العاصفة وذلك بزرعه في ظن البعض أن الآخرين يراقبونهم، وبمزج بارود الثكنات بالرمل وسَرْبَلَة حقيقة نواياه في طيّات الحقيقة المعاكسة، ورغم ذلك كانوا يتمرّدون، فيلوح في الثكنات وهو يتمصّص رغوة من المرارة، ابتعدوا أيها القذرون، يصرخ بهم، أمامكم الآن من يقود، يزعق بالضباط المرتاعين الذين كانوا يتدربون على الرمي على صوري، جردوهم من أسلحتهم، كان يأمر من دون توقف مع نبرة قوية من الحنق والسلطة بحيث كانوا يلقون أسلحتهم بأنفسهم، جرّدوهم من هذه البدلات المخصصة للشجعان الخدومين، يأمر، فيجردون منها، ثكنة سان خيرونيمو تمرّدت سيدي الجنرال، فما كان منه إلا أن دخل من البوابة الكبيرة ساحباً قدمي الشيخ المعذّب الضخمتين بين طابورين من الحرس المتمرّد الذي قدم له التشريفات الواجبة للجنرال رئيس الدولة، ثم ظهر في قاعة المفرزة المتمردة، بلا مرافقين، بلا أسلحة، ولكنه صرخ صرخة دوّت مثل انفجار للسلطة انبطحوا أيها البلهاء ها هو ذا من يقدر على كل شيء، انبطحوا أيها الأوغاد، وانبطح تسعة عشر ضابطاً من هيئة

الأركان على الأرض، وتم حملهم إلى القرى الساحلية كي يأكلوا التراب ولكي يفهم الجميع ما قيمة الجندي بلا بدلة، أبناء العاهرات، وفوق الأصوات الأخرى المتعالية من الثكنة المذهولة تناهت إلى مسمعه أوامره الشخصية، ارموا المسؤولين عن التمرّد بالرصاص واجعلوا وجوههم إلى الحائط، ثم عرضت جثثهم المعلقة من أعقابها تحت أشعة الشمس ونور القمر حتى لا يجهل أيّ كان مصير الذين ينتهكون حرمة الله، الصعاليك، غير أن هذه التصفيات الدموية لم تكن كافية لإنهاء الإزعاجات قط إذ في كل فترة سهو تبرز من جديد تهديدات ذلك الحيوان الطفيلي ذي المجسات والذي كان يعتقد أنه أباده في حين كان لا ينفك يتوالد ويتكاثر في ظل سلطته بفضل الامتيازات وبقايا السلطة والثقة العالية التي كان يتوجب عليه أن يهبها للضباط الأكثر خدمة رغماً عنه، إذ لا يمكنه الاستغناء عنهم ولكنه لا يستطيع أيضاً أن يظلّ معهم، محكوماً عليه نهائياً بأن يتنفس ذلك الهواء الذي يخنقه، سحقاً إذاً، يا له من ظلم، ثم كيف يمكن العيش تحت التهديد الدائم المتأتي من نقاء شريكي الجنرال رودريغودي أغيلار الذي دخل مكتبي بهيئة مأتمية متلهفاً لمعرفة ماذا حل بأولئك الألفي طفل الذين سحبوا جوائزي الكبرى في اليانصيب الوطني، كل الناس يقولون إننا أغرقناهم في البحر، فيجيب من دون ارتباك لا تصدّق شائعات الصعاليك، يا شريكي، الأطفال الذين تتحدث عنهم يترعرعون في رحاب الله، كل مساء أسمعهم ينشدون هناك، يقول راسماً بيده دائرة واسعة تشير إلى موضع غير محدد في الكون، ألم يترك السفير إيفانس نفسه في نوبة من عدم اليقين عندما أجابه بأن التلاميذ كانوا كاملي العدد ويتمتعون بصحة

جيدة في مدارسنا، سحقاً إذاً، انتهت القضية، ورغم ذلك لم يتمكّن من تجاهل خبر أيقظه من نومه في منتصف الليل سيدي الجنرال لقد أعلنت الحاميتان الأساسيتان في البلاد العصيان وكذلك ثكنة دل كوندي على مقربة شارعين من مقر الرئاسة، عصيان خطير بقيادة الجنرال بونيفينتو بربوزا يسانده ألف وخمسمائة رجل مزوّدين جيداً بأسلحة وذخيرة مهرّبة بالتواطؤ مع عدد من القناصل المناصرين لقضية المعارضة، الأمر الذي يعني أن المسألة خطيرة هذه المرة سيدي الجنرال، ويمكن أن تعود علينا بالوبال. كان يمكن لمثل هذا التحرك البركاني أن يحرك فيه الشعور بالمجازفة في عصر آخر، أما الآن فإنه يدرك وطء الشيخوخة عليه أفضل من أيّ كان، صار لا يكاد يتمكّن من مقاومة دمار عالمه السرّي، ولم يعد قادراً على النوم في ليالي الشتاء إلا بعد وضع خصيته المفتوقة في باطن يده مع هدهدتها مثل طفل يتألم وجعاً نَم يا صغيري نم، وكان يستسلم لوهن العزيمة جالساً على سطله، دافعاً بروحه قطرة قطرة كما عبر مرشح منسدّ بفعل عفونة ليال عديدة من التبرّز في العزلة، وأخذت ذكرياته تتلاشى، ولم يعد بوسعه أن يتيقّن مَنْ كان مَنْ ومن الذي يأتي مِنْ قبل مَنْ، كان يحس بنفسه تحت رحمة قدر لا مفرّ منه في بيت موحش كان من السهل عليه في أزمنة سابقة أن يغادره نحو بيت آخر، بعيداً من هنا، في بؤرة هنود محتضرين، حيث لا يمكن لأحد أن يعرف بأنه كان الرئيس الوحيد للوطن طيلة سنوات عديدة كانت من الكثرة بحيث لم يعد هو نفسه قادراً على عدّها، ورغم ذلك، عندما توسط الجنرال رودريغودي أغيلار من أجل إيجاد تسوية مشرفة للعصيان المسلح لم يكن الشيخ الخرف المتناوم طيلة الجلسات هو الذي استقبله بل

البيزون(٥) الغضوب والمسنّ الذي أجاب من دون مهلة تفكير لا مجال للحماقات، لن أذهب، رغم أن المسألة لم تكن تتعلّق بالذهاب أو بالبقاء، ولكن بكل بساطة سيدي الجنرال كلّ شيء ضدنا، حتى الكنيسة، كلا، قال، الكنيسة مع الذي يحكم، نعم لكن جنرالات القيادة العليا المجتمعين منذ ثمان وأربعين ساعة لم ينجحوا في التوصل إلى اتفاق فيما بينهم، لا أهمية لذلك، قال، سترى كيف يصممون عندما يعلمون من الذي يعطيهم مالاً أكثر، نعم لكن قادة المعارضة المدنية بدأوا أخيراً بالظهور وهم الآن يتآمرون في قلب الشارع، هذا أفضل قال، اشنق منهم واحداً على كلّ فانوس من فوانيس ساحة الأسلحة حتى يعرف الجميع من هو الرجل القادر على كل شيء هنا، ولكن كل شيء ضاع سيدي الجنرال، كل الناس معهم، هراء، قال، القوم معي ولن يخرجني أحد من هنا إلا ميتاً، قرّر ضارباً على الطاولة بيد الفتاة القاسية، وهي حركة لا يقوم بها إلا في المناسبات الكبرى، ثم نام حتى ساعة حلب البقرات، حيث وجد قاعة الاجتماعات قد تحولّت إلى مزبلة، ذلك أن متمرّدي ثكنة دل كوندي كانوا قد قذفوا أحجاراً لم تترك أية نافذة سليمة الزجاج في الرواق الشرقي، وكرات من نار ظلّت تدخل من النوافذ المفتوحة ناشرة الرعب بين سكان المنزل طيلة الليل، لو أنك رأيت ذلك سيدي الجنرال، لم يطبق لنا جفن، كنا نركض في كلّ اتجاه مع أغطية وصفائح من الماء لإخماد بؤر النار التي كانت تندلع في الأماكن الأقل توقعاً، أما هو فكان لا يكاد يسمع، أكرر لكم لا تكترثوا لذلك، كان يقول مجرجراً قدميه الثقيلتين الشبيهتين بشاهدتي قبر عَبر المماشي المغطاة بالرماد وببقايا السجاد، والنّجود الشائطة، ولكنهم سيعيدون

الكرة، قالوا له، لقد حذرونا بأنّ كرات النار لم تكن سوى إنذار، الآن سنكون هدفاً للانفجارات سيدي الجنرال، لكنه اجتاز الحديقة من دون أن يهتم لأحد، واستنشق تحت خيوط المساء الأخيرة عطر الورود الحديثة التفتّح، وفوضى الديوك في طيات الريح البحريّة، ماذا نفعل سيدي الجنرال، لقد قلت لكم ذلك لا تكترثوا، يا للفوضى، ثم ذهب كعادته كل يوم وفي الساعة نفسها ليراقب حلب البقرات، بطريقة جعلت متمرّدي ثكنة دل كوندي يرون، كعادتهم كل يوم وفي الساعة نفسها، البغلتين تجرّان العربة المحمّلة بستة براميل من حليب الزريبة الرئاسيّة، وعلى المقعد كان يجلس سائق العربة الدائم حاملاً رسالة شفهية سيدي الجنرال يرسل إليكم بهذا الحليب رغم أنكم مثابرون على البصاق على اليد التي تطعمكم، قال ذلك بصوتٍ عالٍ كان من البراءة بحيث أن الجنرال بونيفينتو بربوزا أمر بقبول الحليب على شرط أن يذوق منه سائق العربة أولاً للتأكد من أنه غير مسموم، وهكذا فتحت الدعامات الحديدية وتمكّن الألف وخمسمائة متمرّد المنحنون على الشرفات الداخلية من رؤية العربة وهي تدخل وسط الباحة المبلّطة، ورأوا الجندي الوصيف يصعد إلى المقعد مع وعاء ومغرفة لكي يذيق الحليب لسائق العربة، رأوه يزيح غطاء البرميل الأول، رأوه يطفو في تعرجات متلاشية لانفجار يبهر الأبصار، ثم كفوا عن رؤية أي شيء إلى أبد الآبدين في القيظ البركاني المخيم على البناء الكئيب ذي الإسمنت الأصفر الذي لم تزينه زهرة قط والذي ظلت أنقاضه للحظة معلّقة في الفضاء بعد الانفجار الرهيب لستّة براميل من الديناميت. لقد قضي الأمر، تنهّد في البيت الرئاسي مهزهزاً بالريح البركانية التي عصفت من جديد بأربعة بيوت حول الثكنة

وحطّمت زجاجيات الأعراس في الخزائن داخل المدينة وخارجها، لقد قضي الأمر، تنهّد، عندما خرجت عربات النفايات من باحات القلعة وفيها جثث الثمانية عشر ضابطاً الذين أعدموا في طابور مزدوج لتوفير الذخيرة، لقد قضي الأمر، تنهّد، عندما قال له الجنرال رودريغو دي أغيلار وهو في وضع الاستعداد سيدي الجنرال لم يعد هنالك موضع واحد شاغر في السجون من أجل السجناء السياسيين، لقد قضي الأمر، تنهّد، عندما دقّت الأجراس، عندما ارتفعت الأسهم النارية جذلى، عندما انفجرت المفرقعات، معلنة عن قرن جديد من السلام، لقد قضي الأمر، يا للفوضى، انتهى الحادث المؤلم، قال، وظل مقتنعاً بذلك، وبدا غير مكترث وأهمل سلامته الشخصيّة إلى حدّ أنه ذات صباح عندما كان يجتاز الباحة عائداً بعد الاحتلاب، لم يأت ردّ فعله في الوقت المناسب كي يرى الأبرص المزيّف الذي انتصب فجأة بين أشجار الورد واعترض طريقه تحت رذاذ أكتوبر الخفيف، فانتبه متأخراً إلى ومضة المسدس الفولاذية، والسبّابة المرتعشة التي شرعت تضغط على الزناد عندها صرخ وهو مشرّع الذراعين معرّض الصدر، حاول أن تتجرأ أيها الوغد، حاول قليلاً، كان مذهولاً لفكرة أن تكون ساعته قد أزفت وهو يحاول إعاقة التنبؤات الأكثر جلاء لجفنات العرّافات، أطلِقْ إذاً إنْ كنت جريئاً، صرخ، في تلك اللحظة غير المحسوسة حيث تألق نجم أدكن في سماء عيني المهاجم، ذوت شفتاه، انشلّت إرادته، عندئذ هجم بقبضتيه مثل مطرقتين على صدغي الآخر، فأوقعه أرضاً على الفور، ثم أجهز على فكّه بضربة من رجله كانت أقرب إلى ضربة بيد هاون، وسمع في عالم آخر بلبلة الحارس الذي هرع بعد سماعه صراخه، ثم مر عبر البقايا الزرقاء التي

خلفها الرعد المتواصل للرصاصات الخمس التي أطلقها الأبرص المزيّف في بطنه وهو يتخبط في بركة من الدماء لكي لا يقع حيّاً بين براثن جلادي الحرس الرئاسي، وفوق الأصوات الأخرى المنبعثة من أرجاء البيت المضطرب سمع أوامره المدوّية بلا جدوى مزّقوا الجثة وليكن في ذلك عبرة، فتمّ تقطيع الجثة إرباً إرباً، وعرض الرأس مملّحاً بملح خشن في ساحة الأسلحة، والساق اليمنى في الناحية الشرقية من سانتا ماريا دل آلتار، واليسرى في الغرب الذي لا حدود له من صحارى ملح البارود، وذراع في المرتفعات، والأخرى في الغابة، وعرضت قطع الجذع، المقليّة في دهن خنزير مذوّب، تحت الشمس والندى حتى لم يبق منها سوى العظم العاري بتمام طوله في أماكن فوضى الزنوج الوعرة والخطرة، حتى يدرك الجميع جيّداً كيف ينتهي أولئك الذين يتجرأون على رفع يدهم في وجه أبيهم، ثم استكشف أشجار الورد وهو لايزال مصفراً من الحنق وهناك كان الحرس الرئاسي يطرد البرصى بأسنة الحراب إذ أنه كان يريد أن يرى إن كنتم ستظهرون من جديد، أيها المشردون، صعد إلى الطابق الأول وهو يبعد المشلولين بقدميه إذ أنه كان يريد أن يعرف إن كنتم ستعلمون أخيراً من الذي حبّل أمهاتكم يا أبناء القحاب، اجتاز الأروقة صارخاً تنحّوا من هنا يا للفوضى فأمامكم الآن القائد الذي يحكم زارعاً الهلع في موظفي المكاتب والمتملّقين بلا حياء الذين كانوا يعلنونَ أنه خالد، ترك على امتداد البيت أثر ركام من الأحجار المنبعثة من أنفاسه الأتونيّة، اختفى مثل برق هارب في قاعة الاجتماعات ليبلغ الجناح الخاص، دخل غرفته، أقفل الرتاجات الثلاثة والمزاليج الثلاثة والدعامات الثلاث وبأطراف أصابعه خلع بنطاله الملوث بالبراز. لم يعرف لحظة راحة،

وهو يتشمم حواليه لاكتشاف العدوّ الخفيّ الذي سلّح الأبرص المزيف، أحس بأنه شخص قريب منه، شخص حميم إلى درجة أنه يعرف مخابئ أصص العسل، وكان يلصق عينيه بشقوب الأقفال وأذنيه بالزوايا في كلّ آن ومكان حيث توجد دائماً صوري، حضور متحرك كان يصفّر مع هبوب صابيات يناير ويعرّيه في ليالي القيظ وهو بين اتقاد جمر الياسمين، حضور طارده طيلة شهور وشهور في رعب السهاد عندما كان يجرجر قدمي الشبح الفزعتين عبر الغرف المنعزلة في البيت الغارق في العتمة، حتى ذلك المساء حين رأى أثناء جولة دومينو النّذير وهو يتجسّد في يد متروِّية أنهت اللعبة بخمسة مزدوجة، حدث كل شيء كما لو أن صوتاً داخلياً أسرَّ إليه بأن هذه اليد هي يد الخيانة، سحقاً إذاً، إنه هو، قال مرتبكاً، رفع عينيه فاصطدم بصره عبر الضوء المتدفّق من المصباح المعلّق فوق وسط الطاولة بعيني المدفعيّ الجميلتين، عيني شريكي العزيز الجنرال رودريغو دي أغيلار، هراء، ساعده الأيمن، شريكه القدّوس، مستحيل، فكّر وقد أنارت الكارثة ذهنه بحيث غدا يكتشف خبايا خيوط المؤامرة بصفاء أكثر، وكذلك الحقائق المزيفة التي سلّوه بها طيلة سنوات عديدة لإخفاء الحقيقة المرّة كان شريكي مدى الحياة في خدمة السياسيين المأجورين الذين أخرجهم في الأوان من حضيض ظلمات الحرب الفيدرالية وأغناهم ومكنهم من الثروة الفاحشة والترقيات غير القانونية، لقد استسلم شريكي لمكائدهم، وسمح لهم بأن يستخدموه لكي يصعدوا إلى مستوى أعلى مما كانت تحلم به الارستقراطية القديمة التي كنستها رياح الإعصار الليبرالي الحاسمة، ولم يرضوا بكل ذلك، سحقاً إذاً، كانوا يطمعون في مكانة المصطفى من قبل الله التي خصّ بها نفسه، كانوا

يريدون أن يكونوا أنا، الأوباش، لقد أنير دربهم بالصفاء البارد وبالحذر اللامتناهي لدى الرجل الذي عرف كيف يكتسب أكبر قدر ممكن من الثقة والسلطة في ظل نظامه منتهزاً فرصة كونه كان الوحيد الذي يتقبل منه أوراقاً للتوقيع، كان يُسمعه بصوت مرتفع جميع القرارات والقوانين التي لا يمكن لغيري أن يصدرها، كان يعين له مواضع التعديلات، ثم يبصم بإبهامه ويختم بالخاتم الذي يحافظ عليه في خزنة لا يعرف طريقه فتحها سواه، في صحتك، يا شريكي، كان يقول له وهو يمدّ إليه الأوراق الممضاة، لديك ما تمسح به، كان يقول له ضاحكاً، وكان كلّ شيء يحدث كما لو أن الجنرال رودريغو دي أغيلار نجح في إقامة نظام آخر داخل نظامي له الرحابة نفسها والخصب نفسه، الأمر الذي لم يمنعه من إثارة عصيان ثكنة دل كوندي خلسة بتواطؤ السفير نورتون ومساعدته، شريكه في القحاب الهولنديات، ومدرّبه في السلاح الذي استغل حصانته الدبلوماسية لتهريب الذخيرة في براميل سمك الغادس النرويجي في حين كان يخدّرني بتملقه لي ونحن أمام طاولة الدومينو، ليس هناك حكومة أكثر صداقة ولا أكثر عدالة ولا أكثر قدوة من حكومتي، ولقد كانوا هم أيضاً الذين دسوا بالمسدّس في يد الأبرص المزيف مع الخمسين ألف بيزو المشطورة الأوراق والتي وجدناها مطمورة في بيت المعتدي، أما شطرها الآخر فكان من المنتظر أن يسلّم إليه بعد الجريمة من قبل شريكي مدى الحياة، أمّاه، يا لها من خيانة مرّة، ورغم ذلك لم يكن ليستسلم للفشل بل إنه انتهى بأن جهّز مخططاً ممتازاً لا يمكن بموجبه أن يهرق أي دم، ولا حتى دمك أيها الجنرال، ذلك أن الجنرال رودريغو دي أغيلار عمد إلى مراكمة الإثباتات الأكثر جدارة بالثقة والتي تؤكد أنني كنت

أقضي ليالي بيضاء مثرثراً مع أصص الزهور، ولوحات الرجال المشهورين والمطارنة في البيت المعتم، وإنني كنت أقيس حرارة البقرات بمقياس حرارة وأناولها «الفيناسيتين» لإنزال درجة الحرارة، وإنني بنيت ضريحاً لأميرال بحر أوقيانوسي لم يكن له وجود سوى في مخيلتي المحمومة، في حين أنني رأيت بعينيّ الرؤوفتين رأيت مراكب الكرافيل الثلاثة راسية أمام نافذتي، وإنني بددت الأموال العامة بنزوتي التي يتعذّر كبتها من أجل اشتراء الأدوات البارعة وأنني ذهبت حتى إلى جعل الفلكيين يبلبلون المنظومة الشمسية لإرضاء ملكة جمال لم يكن لها من وجود سوى في هذيانه، وإنني أثناء إحدى أزمات جنون الشيخوخة أمرت بنقل ألفي طفل في زورق إنقاذ محمل بالإسمنت تمّ تفجيره فيما بعد في عرض البحر، أماه، تصوري، يا لهم من أبناء قحاب، واستناداً إلى هذه الشهادات البيّنة كان الجنرال رودريغو دي أغيلار ومجلس قيادة الحرس الرئاسي بتمامه وكماله قد قرروا حجزه في ملجأ الشيوخ المرموقين عند أعالي الصخور، يوم أول مارس في منتصف الليل أثناء المأدبة السنوية لقداسة الملاك الحارس، شفيع الحرس الخاص، أي خلال ثلاثة أيام سيدي الجنرال، تصوّروا ذلك، ولكنّه رغم أهمية المؤامرة واقتراب حدوثها لم يترك أيّة شفافية لنواياه من شأنها أن تثير الشكوك حول كونه كان على علم بكل شيء، بالعكس ففي الساعة المقررة استقبل المدعوّين من حرسه الخاص كعادته كلّ عام ودعاهم كي يجلسوا إلى طاولة الوليمة لتناول المشروب في انتظار وصول الجنرال رودريغو دي أغيلار الذي سيأتي بنخب الشرف، تحدّث معهم، ضحك معهم الواحد بعد الآخر، وفي الأثناء كان الضباط ينتهزون أية فرصة سانحة للنظر في ساعاتهم خلسة،

فيقربونها من آذانهم ويعبئونها، كان الوقت منتصف الليل إلا خمس دقائق والجنرال رودريغو دي أغيلار لا يصل أبداً، وكانت الحرارة كأنها تنبعث من مرجل سفينة في حين كان يخالطها عطر الزهور، كانت القاعة المغلقة تعج برائحة زهور الدّلبوث والتوليب والورود الفاقعة، فتح أحدهم نافذة، تنفسنا، نظرنا إلى ساعاتنا، استنشقنا هبّة ريح بحرية ناعمة ورائحة طعام شهي كأنه طعام عرس، كان الجميع ينضحون عرقاً ما عداه، وكلّنا كنّا نكابد احتراق اللحظة فوق النار البكر المتقدة من الحيوان البدائي الذي كان سادراً وعيناه مشرعتان على فضائه الخاص في زمن آخر للعالم، في صحتكم، قال، ورفعت يده اللامبالية، يد الزنبقة الذاوية، رفعت مرة أخرى القدح نفسه الذي دقّ به الأقداح الأخرى طوال المساء من دون أن يشرب بدوره، سمعنا الجلبة المتصاعدة من أحشاء ساعاتنا في صمت الهاوية الختاميّة، منتصف الليل والجنرال رودريغو دي أغيلار لا يصل دائماً، حاول أحدهم أن ينهض، بإذنك، قال، جمّده بنظرة قاتلة كانت تعني أن لا أحد يتحرك، لا أحد يتنفّس، لا أحد يعيش من دون أذني حتى الدقة الثانية عشرة لمنتصف الليل آن فتحت الستائر وتمّ دخول جنرال الفرقة العسكرية رودريغو دي أغيلار العتيد على طبق من فضة، ممدّداً بكامل طوله على زينة من القنّبيط والرنْد، منقوعاً بالتوابل، مذهّباً بالفرن، متبّلاً ببزته ذات اللّوزات الذهبية الخمس العائدة إلى المناسبات الكبرى وضفائر الشجاعة غير المحدودة على كُمّيْه المشمّرين عن ذراعيه الشبيهتيْن بجناحي طائر الطرسوح البحري، سبعة كيلوغرامات من الميداليات على بطنه وعذق بقدونس في فمه، جاهزاً لأن يقدّم طعاماً في وليمة الأصدقاء من قبل القصابين الرسميين أمامنا،

نحن جميع المدعوّين المتحجّرين من الهول، وقد حضرنا متقطعي الأنفاس الاحتفال الشهي بالتقطيع والتوزيع، وعندما تم وضع قطعة من وزير الدفاع المحشو بالصنوبر والبقول في كل صحن، أعطى الأمر بالشروع، كلوا هنيئاً سادتي.

الهوامش:

١- Cangue : نير خشبي كان الصينيون يطوّقون به أعناق المجرمين .
٢- ثمرة الدباء ، وهي من النباتات المعترشة التي يستعمل ثمرها للتزيين أو يستخدم كالقناني والأواني .
٣- Godos : « البرابرة المتوحشون » ، صفة تحقير تستعمل في كولومبيا إشارة إلى المحافظين .
٤- الأغوانة : عظاية أمريكية عاشبة .
٥- ثور أمريكي له عند كتفيه ما يشبه السنام .